ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [0.88].

دراسات

الرحلة المغربية إلى الحجاز خلال العصر الوسيط
رحلة العبدري نموذجًا

د. نور الدين امعيط
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
كاتب وباحث في التاريخ الإسلامي الوسيط
بني ملال – المملكة المغربية

مُلَخّص

عرفت العلاقات المغربية المشرقية امتدادًا روحيًا وتواصلاً ثقافيًا منذ فترات مبكرة من العصر الوسيط، حيث شكلت الرحلة إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج هاجسًا لدى معظم المغاربة خاصتهم وعامتهم، وهي رحلات كانت تتم بشكل جماعي عرفت في المصادر التاريخية باسم "ركب الحاج" أو "ركب الحجيج" أو بمصطلح "الركب" دون إضافة. وقد دأب بعض العلماء المغاربة خلال العصر الوسيط، على تدوين رحلاتهم في أسلوب أدبي رزين وضمنوها ما عاينوه وسمعوا به من أحداث ووقائع، في طريقهم إلى بلاد الحجاز، فقدموا بذلك صورة متكاملة عن ركب الحاج المغربي إلى الديار المقدسة. ومن الرحلات المغربية التي دونت خلال الحقبة الوسيطية، رحلة العبدري والتي يتناولها المقال لعرض صورة للركب المغربي إلى بلاد الحجاز خلال القرن (السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي)، وذلك بتوضيح طريق الذهاب والعودة، وإبراز مختلف العوائق التي كانت تقف في وجه ركب الحجاج المغاربة، مع توضيح موقف كل من الحكام والعامة والفقهاء من هذه العوائق ومن ركب الحاج المغربي عامة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٦	مارس	٢٠١٥
تاريخ قبـول النشـر:	١٣	يوليـو	٢٠١٥

كلمات مفتاحية:
تاريخ الرحلات، بلاد الحجاز، الحواضر الإسلامية، العلماء المغاربة، رحلة العبدري

معرّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0041881

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
نور الدين امعيط. "الرحلة المغربية إلى الحجاز خلال العصر الوسيط: رحلة العبدري نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة العاشرة- العدد السادس والثلاثون؛ يونيو ٢٠١٧. ص١٢٦ – ١٣٢.

مُقَدِّمَةُ

لقد عرفت العلاقات المغربية المشرقية امتدادًا روحيًا وتواصلاً ثقافيًا منذ فترات مبكرة من العصر الوسيط، حيث شكلت الرحلة إلى بلاد الحجاز لأداء فريضة الحج هاجسا لدى معظم المغاربة، خاصتهم وعامتهم، وهي رحلات كانت تتم بشكل جماعي، عرفت في المصادر التاريخية بمصطلح "ركب الحاج" أو "ركب الحجيج" أو بمصطلح "الركب" دون إضافة.[١] وقد دأب بعض العلماء المغاربة خلال فترات مختلفة من تاريخ المغرب على تدوين رحلاتهم في أسلوب أدبي رزين، وضمنوها ما عاينوه، وسمعوا به من أحداث وأخبار ووقائع في طريقهم إلى بلاد الحجاز، فقدموا بذلك صورة متكاملة عن ركب الحاج المغربي إلى الديار المقدسة. ومن الرحلات المغربية التي دونت خلال الحقبة الوسيطية نذكر على سبيل المثال لا الحصر: رحلة ابن رشيد السبتي (ت.٧٢١هـ)،[٢] ورحلة ابن بطوطة الطنجي (كان حيًا سنة ٧٧٠هـ)،[٣] ورحلة ابن قنفد القسطنطيني (ت.٨٠٩هـ)،[٤] ورحلة ابن خلدون الحضرمي (ت.٨٠٨هـ)،[٥] ثم رحلة العبدري[٦] موضوع هذا العرض الذي سنقدم من خلاله صورة لركب الحاج المغربي خلال القرن (السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي)، وذلك بوصف طريق الذهاب والعودة، وإبراز مختلف العوائق التي كانت تقف في وجه ركب الحجاج المغاربة مع توضيح موقف كل من الحكام والعامة والفقهاء من هذه العوائق ومن ركب الحاج المغربي عامة. وقبل هذا وذاك يبدو من المفيد تقديم نبذة موجزة للتعريف بالعبدري وثقافته.

أولاً: التعريف بصاحب الرحلة وثقافته

هو أبو عبد الله محمد بن علي بن مسعود العبدري ينتسب إلى بلاد حاحا، القبيلة البربرية المصمودية الشهيرة، الواقعة بين المحيط وسفوح الأطلس الكبير الغربي قرب مدينة الصويرة الحالية، لذلك عرف الرحالة العبدري بالحاحي، كما عرف بالمراكشي(٧) لقرب قبيلته منها، ولكونه تولى القضاء بها، وعرف أيضا بابن المعلم(٨)، لأن والده كان معلمًا. وتجدر الإشارة إلى؛ أن العبدري الحاحي هو من كبار علماء المغرب الأقصى خلال القرن السابع الهجري، على الرغم من أن كتب التراجم لم توليه العناية اللازمة للتعريف به، فباستثناء ما ورد لدى صاحب جذوة الاقتباس(٩) الذي ترجم له اعتمادا على الرحلة نفسها، وما يستفاد منها، لا نكاد نعثر لهذا الرحالة المغربي على ترجمة وافية.

وعلى الرغم من تضارب الآراء والافتراضات حول تاريخ ولادته ووفاته، فإن الثابت أن الرحالة العبدري كان معاصرًا لابن عبد الملك المراكشي(١٠)، فبعد أن تتلمذ على يد والده، انتقل للدراسة بحضرة مراكش، ودرس على يد علمائها كمحمد بن علي بن يحيي الشريف شيخه وشيخ صاحبه ابن عبد الملك المراكشي. ولعل المتصفح لرحلة العبدري، يستشف ثقافته الواسعة، ويلمس اطلاعه على الكثير من علوم عصره، وإلمامه بالفقه والحديث والتاريخ والجغرافيا وعلم العروض... على أن أجمل ما ميز رحالتنا ولعه باقتناء الكتب، فعندما عرض عليه شيخه أبو العباس أحمد الغماز بتونس كتاب جامع البخاري على سبيل الإعارة بدل شرائه، أجابه العبدري "أريد أن أقرأ هذا الكتاب في أصل يكون لي أرجع إليه".(١١) وقد نال ثقة وتقدير شيوخه، فمنهم من خول له مهمة مراجعة بعض قصائده كالشيخ زين الدين ابن المنير بالإسكندرية، ومنهم من كان يقدمه إمامًا للصلاة كالشيخ أبي القاسم بن حمادي بن أبي بكر الحضرمي بتونس.(١٢)

ثانيًا: صورة ركب الحاج المغربي من خلال رحلة العبدري

١/٢- وصف طريق الذهاب والعودة:

خرج العبدري من بلاده حاحا في الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة (٦٨٨هـ/١٢٨٩م)، قاصدًا الديار المقدسة بالحجاز، فقطع الجنوب المغربي من الغرب إلى الشرق في ثلاثين مرحلة، مرورًا بمنطقة سوس ما بين الأطلس الكبير والصغير، حتى إذا وصل إلى الشرق أخذ طريق القوافل إلى تلمسان. وقد شكلت مدينة تلمسان إحدى أهم محطات ركب الحاج المغربي، حيث اجتمع فيها الحجاج القاصدين لبيت الله الحرام حتى اقترب عددهم من الألف(١٣) بحسب تقدير رحالتنا الذي استأنف تقييد رحلته منها(١٤).

وبعد المقام الطويل في تلمسان، خرج الركب في الخامس من شهر ربيع الأول سنة ٦٨٨هـ في اتجاه بلدة مليانة على وادي شلف، ومنها إلى الجزائر فباجة، ثم تونس وهي المحطة الرئيسية الثانية حيث وصفها العبدري بأنها "محط الرحال من الغرب والشرق وملتقى الركاب"(١٥). وبعدما طاب المقام للعبدري بمدينة تونس، خرج الركب إلى القيروان ليصل إلى قابس، ثم إلى طرابلس متأسفا على الحالة العلمية المتدنية بهذه المدن. وما إن وصل الركب إلى أرض برقة، حتى كابد متاعب شتى، فقد وصف العبدري الطريق الموصلة لها بـ "أم البراري والقفار"(١٦)، كما سماها "ببرية زديك البرية الردية معدن كل أدية"(١٧)، في إشارة دالة وصريحة للعوائق الأمنية بهذا الطريق. ومن أرض برقة، مرورًا بالعقبة الكبيرة والصغيرة، وصل الركب إلى الإسكندرية ومنها إلى القاهرة التي أمضى بها رحالتنا عيد الفطر، فأخذه الشوق إلى أبنائه ووطنه، وألمت به الغربة والوحشة، فعبر عن ذلك شعرًا ضمن رحلته.(١٨)

سار الركب في اتجاه مكة، وفيها انشرحت نفس الحجاج المغاربة، ومنهم العبدري الذي طاب له المقام، وعزم المجاورة والإقامة بها، حيث يقول: "اكتريت الدار وصرفت بعض من كان معي ليرجعوا إلى المغرب... وبقيت مع الركب ننتظر خروج السكان من المنزل الذي اكتريته... حتى قضى الله بفتنة وقعت بين الركب وبين صاحب مكة".(١٩) واصل الركب المسير في اتجاه المدينة المنورة التي وصل إليها رحالتنا رفقة الركب يوم الأربعاء ثلاثين من ذي الحجة، من سنة ثمان وثمانين وستمائة للهجرة. وبخصوص طريق العودة، فقد كان الرجوع من الطريق الأول، إلا أن هناك من الحجاج من كان يقصد بلاد الشام في اتجاه الخليل وبيت المقدس، وهناك من يصوب الوجهة راجعا إلى وطنه، وهذا حال معظم الحجاج المغاربة الذين كان العبدري برفقتهم، حيث توجهوا إلى مصر عائدين إلى المغرب، فكانت طريق الذهاب هي نفسها طريق العودة، إلى أن وصل الركب إلى تلمسان ليتجه شمالا نحو فاس فمكناسة ثم أزمور غربا وصولا إلى بلاد حاحا.

ومن خلال رصد أهم المحطات التي مر عليها ركب الحاج المرافق للعبدري يمكن إبراز الملاحظات التالية:

- أن الطرق التي كان يسلكها ركب الحاج المغربي نحو المشرق، وإن اختلفت مراحلها ومنازلها، فهي تلتقي جميعها في تلمسان، فمن بلاد حاحا اتخذ الركب طريق القبلة في اتجاه الشرق، كما أن طريق الحج، كانت هي نفسها طريق القوافل التجارية.
- أن بعض المحطات الرئيسة، قد شكلت مجمعًا يلتقي فيه الحجاج كـ تلمسان وتونس والإسكندرية والقاهرة، ومن ثمة كان الحج فرصة للقاء، ومناسبة للتواصل وتلاقح المعارف والأفكار، وتبادل العلوم أخذًا وعطاء بين العلماء المغاربة وإخوانهم المشارقة.
- أن المسير من القاهرة إلى مكة، كان غالبا ما يتم ليلاً لتفادي شدة الحر ولهيب العطش، وهذا حال الركب المصري ومعه المغربي، فقد "كانوا يرحلون في نصف الليل أو قبله بيسير، وربما رحلوا في الثلث الأخير من الليل، والمشاعل ترد الليل نهارًا، فيسيرون حتى تصبح، ويصلون ثم يستديمون السير

حتى ترتفع الشمس فينزلون إلى الظهر، ويصلون، ثم يرحلون، ثم ينزلون آخر النهار عند الغروب إلى نصف الليل هكذا إلى مكة وإلى مصر".[٢٠] ولا غرو، فقد كان المسير ليلاً يخفف على الحجاج كثيرًا من العناء والمشقة فلو "كان سيرهم بالنهار لتعطل عليهم أكثره".[٢١]

- أن مبيت الحجاج، كان يتم بالفنادق أو المدارس والزوايا أو الخوانق[٢٢]، وإن كان العبدري لم يشر إلى ظروف مبيت الحجاج إلا بشكل محتشم، فإن رحالة آخرون زاروا بلاد الحجاز قبل العبدري وبعده، وعلى رأسهم ابن جبير الذي ذكر أن الركب لما وصل إلى الإسكندرية، كان نزوله "بفندق يعرف بفندق الصفار بمقربة من الصبانة"[٢٣]، وعند وصول الركب إلى قوص ملتقى الحجاج المغاربة والمصريين (...) ومن يتصل بهم، نزل الركب بفندق ينسب لابن العجمي بالمنية"[٢٤]، كما ذكر أن بمدينة جدة العديد "من الفنادق بنيت بالحجارة والطين"[٢٥].على أن مبيت الركب كان يتم أحيانا في الصحراء، مفترشا الأرض وملتحفا السماء، فقد ذكر ابن جبير "أنا كنا نسير في الصحراء نبيت منها حيث جن علينا الليل".[٢٦]
- وعند الوصول إلى الكعبة، كانت أهم ميزات الركب، كثرة الازدحام وتأهب الناس للقتال، فقد شاهد العبدري قتال الحجاج على الركن الأسود، ومشاداتهم على دخول الكعبة، حيث رأى "الرجال يتساقطون على النساء، والنساء يتساقطن على الرجال، ويلتف البعض بالبعض ويتأهبون للقتال، ويستعدون للدفاع والملاكمة"[٢٧]، على أن الازدحام كان يشتد أكثر بين الحجاج بباب الكعبة، فلا سبيل لدخولهم البيت، ما لم يتوسلوا لأشخاص مختصين في ذلك يساعدونهم على الدخول مقابل بعض الدراهم أو الدنانير.[٢٨] وبالمثل، فقد نقل لنا العبدري صورة للحجاج، وهم بالقرب من بئر زمزم، فرآهم في ازدحام، يتقاتلون على الماء، يأخذ أحدهم الدلو فيصبه على نفسه وثيابه حتى لوثوا الموضع[٢٩].

ولعل من أروع الصور التي نقلها لنا العبدري، ذلك المشهد الرباني المؤثر عند وصول الركب إلى مكة، فبمجرد ما لاحت له معالم هذه المدينة، تحركت سرية رحالتنا، وجادت قريحته شعرا في مدح الرسول الأعظم وأرض مكة التي ذكر "أنها فخر بقاع الأرض على مر السنين"[٣٠]. وقد تقاسم العبدري هذا الشعور والتأثر بلحظة الوصول إلى مكة المباركة، مع الرحالة ابن جبير[٣١] قبله في أواخر القرن (السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) الذي ذكر أن في "معاينة البيت الحرام هول يشعر النفوس من الذهول، ويطيش الأفئدة والعقول، فلا تبصر إلا لحظات خاشعة وعبرات هامعة، ومدامع باكية، وألسنة إلى الله عز وجل ضارعة داعية". أما المقري[٣٢] الذي زار بلاد الحجاز أواخر العصر الوسيط، فقد امتزج لديه الفرح بالبكاء إثر وصوله إلى مكة، إذ يقول: "لما وقع بصري على البيت الشريف كدت أغيب عن الوجود، وسبق الدمع الذي لا يعارض الفرح ولا ينافيه".

وبعد هذه الصورة عن ركب الحاج المغربي المرافق للعبدري، **فأين تكمن العوائق التي كانت تعترض سبيله في اتجاه بلاد الحجاز؟**

ثالثًا: عوائق ركب الحاج المغربي

١/٣- العوائق الطبيعية:

سبقت الإشارة إلى؛ أن ركب الحاج، كان يفضل أن يسري ليلاً تفاديًا لشدة الحر، مما يوحي بمجموعة من العوائق والأخطار الطبيعية التي أحدقت به، ومن أبرزها شدة الحر وهبوب الزوابع الرملية، وعدم وضوح معالم الطريق وندرة الماء أو فساد طعمه أحيانًا أو تبخره من القرب أحيانًا أخرى، بسبب ارتفاع درجة الحرارة، وهبوب الرياح الجافة المعروفة في المصادر "برياح السموم"،[٣٣] فضلاً عن خطر الحشرات والزواحف من العقارب والأفاعي،[٣٤] وغيرها مما كان يتهدد حياة الحجاج والتجار على حد سواء.

(١/٣) ١- ندرة الماء والأمطار العاصفية:

ظلت مسألة الماء والبحث عن منابعه الطيبة والعذبة مسألة حياة أو موت في طريق ركب الحاج المغربي إلى بلاد الحجاز، ولا تعوزنا القرائن الدالة على مدى اهتمام العبدري، ومعه رحالة مغاربة آخرون، بمحطات وجود الماء العذب، ووصف تلك التي وجد ماءها "ملحا أجاجا" أو "وشل زعاق"، فكانت الرحلة بذلك تبدو وكأنها رحلة عطش بحثًا عن منابع المياه العذبة للارتواء وإطفاء لهيب الحر. وقد امتدت مشكلة ندرة الماء على طول الطريق الفاصلة بين المغرب وأرض الحجاز، بل شملت أرض الحجاز نفسها، "فمن البركة إلى مكة توجد بير واحدة، والناس يتقاتلون على مائها حتى لقد قتل بينهم مرة بما ذكر نحو مائتين".[٣٥]

والواضح أن الحاجة كانت تزداد إلى الماء إذ كان الطريق مضني المسير والمسافة التي بين المحطة والتي تليها طويلة، وهو ما عانى منه ركب العبدري بعقبة آيلة فذكر أنها "عقبة شاقة طويلة مسافتها نحو من خمسة أميال تضر بالناس وتقتل الجمال وخصوصًا في الرجوع، وهي في الذهاب حدور".[٣٦] وفي مقابل ندرة الماء وشدة العطش، شكلت الأمطار العاصفية وتهاطل الثلوج أحيانًا بشكل غزير خطرًا محدقًا بالحجاج، وهو ما حصل للركب المغربي في طريقه إلى بلاد الشام لزيارة بيت المقدس، حيث وقع عليهم الثلج، وهم بالقرب من عمان، فأفنى منهم خلقًا كثيرًا، حتى قدر عدد الضحايا بألف وتسعمائة حاج.[٣٧]

(١/٣) ٢- عدم وضوح معالم الطريق:

وقد يحصل زيغ الركب عن الطريق فيصبح لمخزون الماء دور مصيري من أجل حياة الحجاج واستمرار صمودهم بحثًا عن الوجهة الصحيحة في فيافي الصحراء، ولا غرو فقد ذكر العبدري أن بعض الطرق المؤدية إلى بلاد الحجاز "كانت مضلة، يتيه فيها

المسافر دون أن يدري الوجهة الصحيحة، حتى وإن كان الدليل يتقدم الركب أو القافلة، فمن بدر إلى البزواء طريق غير واضح، عده العبدري مجهلاً من المجاهل التي قد يضل فيها حتى الدليل العارف بخبايا ومسالك الصحراء،[٣٨] في حين وصف الطريق الفاصل بين القاهرة ومكة بكونه متاهة من المتاهات "فإذا غاب أحد عن رفيقه لم يجده عن أيام"، وكثير من الحجاج، ضلوا الطريق وظلوا يكابدون مشقة وعناء كبيرين.[٣٩] وقد أورد صاحب التشوف[٤٠] مثالاً حيًا بروايته لمعاناة بعض الحجاج المغاربة الذين ضلوا الطريق وتخلفوا عن الركب، ويتعلق الأمر بالولي الصالح أبا علي مالك الهزميري[٤١] الذي قال: "توجهت من المغرب إلى مكة وكنت أواصل يومين وليلتين، فضللت بصحراء عيذاب عن الركب، فأقمت طاويا يومين وليلتين وأنا مع ذلك أسير سيرًا ضعيفًا من الجوع، فاشتد ضعفي في اليوم الثالث، فأقمت كذلك يومين وليلتين، فسقطت قواي وبقيت في الصحراء طريحًا لا أبصر شيئًا من شدة الجوع(...)".

٢/٣- العوائق الاقتصادية:

وتتمثل فيما كان يلقاه الحاج من الإهانة من قبل القائمين على جباية الضرائب، خاصةً من أهل الإسكندرية، وقد استغرب العبدري لطريقة تعاملهم مع الحجاج "فهم يعترضونهم ويجرعونهم من بحر الإهانة الملح الأجاج (...) يبحثون عما بأيديهم من مال، ويأمرون بتفتيش النساء والرجال"[٤٢]. وقد عانى الركب المرافق لابن جبير في القرن السادس الهجري من نفس الإهانة التي تعرض لها رحالتنا من قبل جباة الضرائب الذين مارسوا شططا ضريبيا وطالبوا بالخفارة[٤٣] من أجل المرور في كل من تلمسان والإسكندرية، وتعدى ذلك ليشمل بعض المناطق الحجازية أيضا حيث كان أهلها "يعتقدون في الحاج مالا يعتقد في أهل الذمة، فقد صيروهم من أعظم غلاتهم التي يستغلونها وينتهبونهم انتهابا، فالحاج لا يزال معهم في غرامة ومؤنة إلى أن ييسر الله رجوعه إلى وطنه".[٤٤]

٣/٣- العوائق الأمنية في البر والبحر:

(٣/٣) ١- مسألة الأمن في البر:

وقد ظلت من الأمور التي تؤرق المغاربة القاصدين لأداء فريضة الحج، ولا غرو فقد عانت ركاب الحجيج من كثرة اللصوص الذين كانوا يترصدون مرور الركب، ويترقبون وصوله، وقد وصفهم العبدري في الطريق الفاصلة بين مصر والحجاز بأنهم "قوم من العرب صعاليك، قل ما يظهرون للركب لخبث أفعالهم، إنما يتطرقون [له]، ويطالعونه من كل مرتب، فإذا رأوا متخلفا عنه لغفلة، أو نوم، أو انقطاع عجز، انقضوا عليه فمزقوا أشلاءه، ولو لم يجدوا عليه إلا خرقة واحدة لم يتركوها له"[٤٥]. وهكذا، فقد عانى الركب من اعتداءات العرب الذين احترفوا الحرابة والنهب وقطع الطرقات، وقد ذكر العبدري العديد من الطرق التي لم تكن تخلو من القطاع البتة، واصفًا هؤلاء بأنهم "أشد خلق الله ضررًا، وأكثرهم جرأة، وأوضعهم نفوسًا، وأكثرهم إقدامًا على كل صالح وطالح".[٤٦] ومن الطرائف التي يرويها لنا العبدري، تلك المتعلقة بأحد قطاع الطرق، وقصته أنه لما مرض مرضه الذي مات منه، وسمع ببعض الحجاج على الطريق، نادى بنيه وقد اعتقدوا أنه تاب، فاستأذنوه في إخلاء سبيلهم، فأشار إليهم باعتراضه، فما زالوا يراودونه حتى أضجر فأشار إلى فيه أي سفوهم سفا، فسمي بالسفاف.[٤٧]

(٣/٣) ٢- مسألة الأمن في البحر:

وتمثلت في الحروب والهجمات الصليبية التي كان يشنها المسيحيون عبر البحر على مختلف المدن الإسلامية الساحلية، ويُعَدّ العبدري شاهد عيان عما كان يلاقيه الحجاج من هجمات صليبية، فقد ذكر "أنا صادفنا وقت المرور (بمدينة بونة) زورقا للنصارى تبلغ عمارته عشرين شخصا، وقد حاصروا البلد حتى قطعوا عنه الدخول والخروج، وأسروا من البر أشخاصًا فأمسكوهم للفداء بمرسى البلد".[٤٨] وهكذا، فقد عانت العديد من المدن من ضربات الصليبيين زمن رحلة العبدري، فاكتنفها القفر، واستولى عليها نصارى البحر"[٤٩]، وهذا حال مدينة طرابلس وجزيرة جربة.

وصفوة القول؛ أن ركب الحاج المغربي، قد ظل يعاني عوائق طبيعية واقتصادية وأمنية كبرى، تمثلت الأولى في عدوانية الطبيعة، وتمثلت الثانية في قساوة وجور الجباة، في حين تجلت العوائق الأمنية في قطاع الطرق والعربان الذين مارسوا الحرابة والنهب، على أن العائق الأخير ظل يؤرق أفراد الركب كثيرًا، مما جعل الحرص على خروج قوافل الركب بشكل جماعي أمرا ضروريا، لأن الظروف الأمنية لم تكن تسمح بالحج بشكل فردي، أو في نفر قليل وجماعات صغرى، لذلك ظلت القوافل تنتظم وتتكاثر وتنسق فيما بينها إلى أن أصبحت تجسد كيانا واحدا ترعاه الدولة كركب رسمي، توفر له الرعاية والحماية، وتكلفه حمل الهدايا النفيسة[٥٠] إلى ملوك مصر وأهل الحجاز، وهو ما تجسد بشكل واضح خلال العصر المريني الأول.

وإذا كانت هذه هي أبرز عوائق ركب الحاج المغربي إلى بلاد الحجاز، فما هو موقف الحكام والعامة والفقهاء من ركب الحاج في خضم مختلف العوائق التي سبق ذكرها؟

رابعًا: موقف الحكام والعامة والفقهاء من مسألة الأمن في طريق ركب الحاج

١/٤- موقف الحكام:

اهتم الأيوبيون وبعدهم المماليك بصد الهجمات الصليبية وتحرير ما وقع في أيدي الصليبيين من ثغور إسلامية، ويُعَدّ العبدري شاهدًا على إحدى الاستعدادات الحربية لمنازلة الصليبيين، فذكر أنه "بعد مرحلة من رابغ جاءنا من مصر من أخبر بموت سلطانها المنصور، وكنا تركنا السلطان على الحركة إلى جهاد عكة، وقد برز جميع عسكره خارج المدينة، فلما خرج، مرض فمات من حينه"[٥١]. وعلى الرغم من وفاة السلطان المملوكي المنصور سيف الدين قلاوون (٦٧٨-٦٨٩هـ /١٢٧٩-١٢٩٠م)، الذي نجح في

استرجاع مدينة طرابلس سنة ٦٨٨هـ، فإن ابنه السلطان الأشرف خليل،[٥٢] الذي تولى العهد، نجح في استرجاع مدينة عكا سنة (٦٩١هـ/١٢٩٢م)، ليصبح بذلك عهد الصليبيين نسيًا منسيا. وهكذا، فإن الحكام المصريين سواء منهم الأيوبيون أو المماليك، قد لعبوا دورًا مهمًا في رد الهجمات الصليبية، وتيسير الطريق أمام ركب الحاج لزيارة الأماكن المقدسة.[٥٣]

والواقع أن المماليك الذين تزامن عهدهم وعهد رحالتنا، قد اعتنوا بركب الحاج المغربي، فقد أورد العبدري أن صاحب مصر (السلطان سيف الدين قلاوون)، قد ألهمه الله من الاعتناء بالركب وإخراج الحصة (للجند) معه بأمير على أكمل ما يكون من الاستعداد والتأهب، ولولاه ما سلك أحد تلك البرية لطولها وخلائها إلا من القطاع".[٥٤] وقد نوه العبدري بحكام مصر من المماليك الأتراك الذين عرفوا بعطفهم على المسلمين ورعايتهم لركب الحجيج وخدمتهم له، فأورد أن ملوك مصر "أهل دين وعقائد سليمة وشفقة وحنان على المسلمين، وقد رأيت من خدمتهم للركب واحتياطهم وصبرهم وحسن محاولتهم ما تعجبت منه".[٥٥]

٢/٤- موقف العامة:

الواقع أن ركب الحاج المغربي المرافق للعبدري، لم يجد ما كان ينتظره من العامة، من ترحيب وحسن معاملة، وإكرام للغريب، بل إن العامة وخاصة في بعض محطات ركب الحاج المغربي تحاملت على ركب الحاج لتزيد من محنه، وخاصة عامة أهل مصر. فقد أدرك العبدري العيد بالقاهرة، وصلى صلاة العيد بها وهو في ظروف نفسية غير مريحة، فأورد أبياتا شعرية دالة على الحزن والكرب وغياب الأنس والوحشة، فقد ذكر أنه لم "ير يومئذ من صدر منه التأنيس بكلمة"[٥٦]، لذلك فلا غرابة إذا وجدناه يصب جام غضبه على أهل القاهرة حيث وصفهم بكثرة اللؤم والحسد ومهانة النفس، وضغينة القلب والسرقة والجفاء للغريب، وما إلى ذلك من الأوصاف التي سطرها في رحلته.

ومهما يكن من قدح العبدري ومبالغته في انتقاد أهل القاهرة[٥٧]، حيث ينبغي أخذ روايته بنوع من التمحيص والحذر، فإن من العامة من أسدى خدمات جليلة لركب الحجيج، وخاصة المتصوفة من القائمين على الزوايا أو الخوانق والمدارس من الأخيار والثقاة ممن سخروا أموالهم في خدمة ركب الحاج، "فالذي يتحملونه من النصب والعناء في خدمة الركب والاحتياط عليه، ومداراة الضعفاء منه... لا يقدر عليه إلا من أهله الله للخير".[٥٨] وعلى الرغم من إشارة العبدري المحتشمة إلى دور العامة خاصة المتصوفة في رعاية ركب الحاج المغربي، فإن ابن بطوطة وابن خلدون اللذان زارا مصر بعد العبدري، قد سجلا وجود عدة زوايا بكل من القاهرة والإسكندرية التي كانت تعرف بمصطلح الخوانق وشكلت ملتقى للفقراء ومطعما للحجاج وعابري السبيل.

٣/٤- موقف الفقهاء:

من أجل دفع أخطار وعوائق ركب الحجيج والدفاع عن حوزة دار الإسلام، كان المغاربة يقاتلون الصليبيين في الشام جنبا إلى جنب مع إخوانهم المشارقة، ليتحول الحجاج إلى مجاهدين في كثير من الأحيان، ومن المغاربة من وقع في يد الأسر لدى الصليبيين، فكان المشارقة يفدون المغاربة لغربتهم[٥٩]. ولا تعوزنا القرائن الدالة على انخراط الحجاج المغاربة في عملية الجهاد ضد الصليبيين، خاصة وأن العديد من الفقهاء، ومنهم ابن رشد (ت.٥٢٠هـ)، وأبي بكر الطرطوشي (ت.٥٢٠هـ) وابن حمدين (ت.٥٠٨هـ) والمازري (ت.٥٣٦هـ)، قد أفتوا بأولوية الجهاد عن الحج ووجوبه في حق المسلمين، في حال غياب الأمن ووجود هجمات الصليبيين. وحسبنا العودة إلى كتب النوازل الفقهية خاصة فتاوى ابن رشد ونوازل المعيار للونشريسي للوقوف على هذه الحقيقة[٦٠]. وإذا كان هذا موقف فقهاء الأندلس من مسألة الأمن في طريق ركب الحاج المغربي، خلال القرن السادس الهجري، فإن من فقهاء فاس، وخاصةً الفقيه عبد النور محمد العمراني[٦١]، من أفتى بسقوط الحج عن أهل المغرب لما شاع من غلبة خوف الطريق وغياب الأمن.

خَاتِمَةٌ

مهما يكن من أمر، فإن ركب الحاج المغربي قد شكل عبر فترات مختلفة من التاريخ الإسلامي، حلقات وصل متتالية بين جناحي العالم الإسلامي مشرقًا ومغربًا، وذلك على الرغم من العوائق المختلفة (طبيعية وأمنية واقتصادية) التي ظلت تعرقل التلاقح والتواصل الثقافي والروحي بين المشرق والمغرب. والحاصل أن علماء الأمة الإسلامية، ومنهم العلماء المغاربة، قد عبروا عن جرأة عالية منذ فترات مبكرة من العصر الوسيط، فتحملوا كثيرا من المشاق وركبوا المغامرة وتجشموا المخاطر لربط الصلة ثقافيًا وروحيًا مع إخوانهم بالمشرق أداء للفريضة وتحصيلا للعلم، ويُعَدّ العبدري نموذجًا يحتذى ليس على جرأته في خوض غمار رحلة في القفار والفيافي محفوفة بالمخاطر فحسب، ولكن على مستوى طموحه العلمي ورغبته في توسيع دائرة معارفه على الرغم من حصيلته التي تنم عن تضلعه في العديد من علوم عصره، وتظل رحلته وثيقة شاهدة على غزارة علمه وطموحه لتغذية الفكر وتزكية الروح، بل إن رحلته جاءت أيضًا صورة ناطقة عن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والثقافية لبعض الحواضر الإسلامية التي مر بها ركب الحاج المغربي خلال (القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي). فكان حريصًا على تعزيز المعطيات التي قدمها بأرقام عن عدد الحجاج المرافقين للركب، وعدد الذين وقفوا في تلمسان يرجون مساعدة أهلها أو عدد الحجاج الذين هلكوا نتيجة كارثة طبيعية أو أمنية أو فتنة ونزاع على الماء. وحسبنا أن نشير إلى شهادة المستشرق الفرنسي (شير بونو) الذي قال "إنني ما رأيت كتابًا عربيًا مفيدًا وممتعًا لدرجة رحلة العبدري".[٦٢]

الهَوامِشُ:

(١) العبدري، **رحلة العبدري**، المسماة **الرحلة المغربية**، حققها وقدم لها وعلق عليها محمد الفاسي، جامعة محمد الخامس، سلسلة رحلات حجازية -٤- وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصيل، الرباط، ١٩٦٨، ص٩٣-١٦٢.- أيضًا: محمد المنوني، ركب الحاج المغربي، ١٩٥٧، ص٧-٨.- أيضًا: علي لغزيوي، **الركب النبوي والهدايا السلطانية الرسمية خلال موسم الحج**، مجلة دعوة الحق، العدد٣٥٠، مارس ٢٠٠٠م/ ذو الحجة ١٤٢٠هـ، ص٤-٥.

(٢) انظر رحلته، **ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة**، تحقيق محمد الحبيب بن الخوج، الدار التونسية للنشر، ١٤٠٢هـ /١٩٨٢م، ج٢ .

(٣) انظر رحلته، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تحقيق د. علي المنتصر الكتاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م،ج٢.

(٤) اختصر ابن قنفد القسطنيطيني (ت. ٨٠٩هـ) **رحلة العبدري** بعنوان "**المسافة السنية في اختصار الرحلة العبدرية**"، والمختصر مازال مخطوطًا بحسب ما نعلم.

(٥) ابن خلدون ورحلته شرقًا وغربًا، ضمن كتاب "**العبر وديوان المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**"، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣، ج٧.

(٦) وتجدر الإشارة أن رحلته تسمى بالرحلة المغربية أو رحلة العبدري.

(٧) يذكر العبدري في رحلته أنه لما سأله شيخه ابن دقيق العيد بالإسكندرية عن موطنه أجابه: "من مراكش"، انظر: **رحلة العبدري**، ص ١٤٠.

(٨) يبدو أن العبدري من عائلة حظيت بنصيبها من العلم، فقد كان والده أبو عبد الله بن علي خطيبا وفقيها، كما أن أخوه الذي صاحبه في الرحلة، قد نال حظه من العلم، وأخذ عن أحد علماء تونس وهو أبو الحسن بن المفضل المقدسي، انظر: **الرحلة**، ص ٢٧٥.

(٩) أحمد ابن القاضي المكناسي، **جذوة الاقتباس في ذكر مَنْ حل من الأعلام مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣، ص ٢٨٦.

(١٠) هو أبو عبد الله محمد بن محمد الأنصاري الأوسي المراكشي (ت. ٧٠٣هـ)، صاحب كتاب الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الأول والثاني تحقيق محمد بن شريفة، والسفر الخامس والسادس تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٥.- ويبدو أن العبدري قد تردد كثيرًا على مراكش قبل رحلته سنة ٦٨٨هـ فقد ذكر ضمن رحلته ابن عبد الملك المراكشي وقال عنه: "صاحبنا الفقيه والأديب الأوحد"، كما نوه بمؤلفه المفيد "الذيل والتكملة"، وقال فيه: "كتاب متقن مفيد"، انظر: **الرحلة**، ص ١٤٠.

(١١) نفسه، ص ٢٤٠.

(١٢) نفسه، ص ص ٢٤٤ -٢٤٥.

(١٣) نفسه، ص ١١.

(١٤) يبدو أن العبدري قد استأنف تقييد رحلته في تلمسان، غير أن إتمام تقييد الرحلة، كان بعد العودة إلى بلده حاحا، انظر: الرحلة، ص ٦.

(١٥) نفسه، ص ٣٩.

(١٦) نفسه، ص ٨٦.

(١٧) نفسه، ص ٨٥.

(١٨) ومما قاله العبدري في هذا الصدد:

ذكرت بيوم الفطر إذ أتي وقوس النوى يرمي الحشا أسهم الكرب
فراحا ناي أنسي بنأي محلهم وصحبا كراما ضمهم أفق الغرب
فأفطرت من قبل الغدو بعبرة غنيت بها يومي عن الأكل والشرب

انظر: الرحلة، ص١٢٨.

(١٩) نفسه، ص١٨٦-١٨٧.

(٢٠) العبدري، ص١٥٦.

(٢١) نفسه، الصفحة نفسها.

(٢٢) ابن بطوطة، م س، ص١١. **والخوانق**: بفتح الخاء والواو ممدودة، مفردها: خانقة وخانقاه: وهي مكان اختلاء وإقامة وعبادة المتصوفة والزهاد، وكانت توقف عليها الأوقاف التي يفي ريعها بما تحتاج من نفقات، وقد كان للخانقاة مرافقها المعاشية من مخبز ومطبخ ومشرب وغيرها، وغالبًا ما كانت تنهض بخدمات عامة كدار للضيافة بالنسبة للمغتربين والمسافرين وأبناء السبيل، انظر: محمد عمارة، **قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية**، دار الشروق، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م، بيروت، القاهرة، ص. ٢٠٢.- وعن وجود المدارس والخوانق في عهد أمراء الدولة المملوكية، يذكر ابن خلدون، أن "أهل الدولة المملوكية بمصر والشام معنيون على القدم منذ عهد مواليهم ملوك بني أيوب بإنشاء المدارس لتدريس العلم و الخوانق لإقامة رسوم الفقراء..." انظر، **الرحلة**، ضمن كتاب "**العبر**"، ج٧ ، ص٥٧٥ وما بعدها.

(٢٣) ابن جبير، م س، ص :٤٤.

(٢٤) نفسه، ص٦١.

(٢٥) نفسه، ص٦٨.

(٢٦) نفسه، ص ٦٢.

(٢٧) العبدري، م س، ص ١٧٦.

(٢٨) نفسه، ص نفسها.

(٢٩) نفسه، ص نفسها.

(٣٠) نفسه، ص ١٧٤.

(٣١) رحلة ابن جبير، م س، ص٧٣.

(٣٢) عبر المقري عن فرحه وتأثره شعرًا عند وصوله إلى مكة، فقال:

متى ترى عيني الحقيقا ويفرح القلب بالوصول
هذه روضة الرسول فدعني بدل الجمع في الصعيد السعيد
لا تلمني على التكلم بعد موتي إنما ضممتها لهذا الصعيد

انظر: **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، حققه ووضع فهارسه يوسف الشيخ محمد البقاعي، ط١، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، ج١، ص٥٠-٥٢.

(٣٣) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، دار صادر، البيضاء، ١٩٥٤، ج٢، ص١٢.

(٣٤) عن الأخطار التي كانت تعترض سبيل الحجاج والتجار على حد سواء أثناء عبورهم للمفاوز والصحاري، انظر: مقال الأستاذ حسن علوي حافظي، "**أخطار تنقل القوافل في القفر بين العوامل الطبيعية والثقافية**"، ضمن: **من إيناون إلى استانبول**، أعمال مهداة إلى الأستاذ عبد الرحمن المودن، تنسيق: عبد الأحد السبتي وعبد الرحيم بنحادة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات، رقم ٥٣، ط ١، ٢٠١٢ م، ص٤٥-٨٠.

(٣٥) العبدري، ص١٥٧.

(٣٦) نفسه، ص١٥٩. وعبر ابن جبير عن المعاناة نفسها، فذكر أن محنته بمدينة عيذاب محتسبة عند الله، إذ عاني فيها من شدة العطش وندرة الطعام، فعانى شظف العيش، وسوء الحال، واختلال الصحة لعدم الأغذية الموافقة، فيقول: "فكل شيء مجلوب حتى الماء والعطش أشهى من النفس منه، فمن بين هواء يذيب الأجسام وماء يشغل المعدة عن اشتهاء الطعام، فما ظلم من غنى عن هذه البلدة لقوله: ماء زعاق ويوكله لهب"، انظر: **رحلة ابن جبير**، م س، ص٦٦.

(٣٧) العبدري، ص٢٢٠.

(٣٨) نفسه، ص١٦٤.

(٣٩) نفسه، ص١٥٦.

(٤٠) ابن الزيات التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**، تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة بحوث ودراسات، رقم-٢٢-، ط٢، ١٩٩٧، ص٤٢٢.

(٤١) هو أبو علي مالك ابن تماجورت الهزميري، من بلد نفيس، توفي بمراكش عام ٦١٠هـ، انظر، م.س، ص٤٢٢. وهامش المحقق رقم: ٣٢٤.

(٤٢) نفسه، ص٩٣.

(٤٣) لم يفصح العبدري عن مقدار الخفارة التي كان يؤديها الحجاج ولا الطرف الذي كانت تدفع له، والثابت أن الخفارة ضريبة غير شرعية كان يدفعها المارة والتجار لحاميهم على المسالك، وتؤدى لصالح شيوخ القبائل أو الحكام والأمراء، انظر: نورالدين امعيط، **المصطلح الاقتصادي في تاريخ المغرب والأندلس**، نماذج وقضايا من القرنين ٥-٦هـ/١١-١٢م، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة مولاي إسماعيل، مكناس،٢٠١١، ص٣٣٩ وما بعدها.

(٤٤) ابن جبير، ص٦٨.

(٤٥) العبدري، ص١٥٤.

(٤٦) نفسه، ص ٩- ٢٧٨.

(٤٧) نفسه، ص١٦٠.

(٤٨) نفسه، ص٣٧.

(٤٩) نفسه، ص٧٧.

(٥٠) عن هذه الهدايا انظر على سبيل المثال: ابن مرزوق، **المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغرا، تقديم محمد أبو عياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٤١٠هـ/١٩٨٠م، ص٤٥٢-٤٥٣.- أيضًا ابن خلدون، م س، ج٧، ص٤٧٩.- أيضًا: المنوني، **ورقات عن حضارة بني مرين**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة محمد الخامس، الرباط، ٢٠٠٢، ص١٧٦-١٧٧ وما بعدها.

(٥١) العبدري، ص١٦٦.

(٥٢) هو الملك صلاح الدين خليل الأشرف ابن قلاوون (٦٩١ -٦٩٣هـ /١٢٩٠-١٢٩٣م).

(٥٣) عن جهاد دولة المماليك ضد الهجمات الصليبية، انظر: خليل أنطوان، **الدولة المملوكية - التاريخ السياسي والاقتصادي والعسكري**، دار الحداثة، بيروت، ط١، ١٩٨٠، ص ١١ وما بعدها.

(٥٤) العبدري، ص١٢٨.

(٥٥) نفسه، صنفسها.

(٥٦) نفسه، صنفسها.

(٥٧) انظر: مناقشة مسألة مبالغة العبدري في قدحه لأهل القاهرة في مقال الأستاذ عبد العزيز الضعيفي، "**مجتمع القاهرة من خلال رحلة العبدري**"، ضمن أعمال ندوة، المغرب – المشرق العلاقات والصورة، تنظيم مجموعة الدراسات والأبحاث حول العلاقات المغربية – المشرقية، مارس ١٩٩٣-١٩٩٤، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، بني ملال، ص ١٨٧-٢١٥.

(٥٨) العبدري، ص١٥٥-١٥٦.

(٥٩) ابن جبير، ص٢٨٠. أيضًا محمد المنوني، "**نماذج من مساهمات الغرب الإسلامي في الحروب الصليبية بالشام وما إليه**"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، العدد ٢١-٢٢، السنة ١٩٩٧، ص١٤٣-١٤٧. العبدري، ص١٥٥-١٥٦.

(٦٠) ابن رشد، **الفتاوى**، تحقيق أحمد المختار بن الظاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٢٢٧، ج٢، ص١٠٢١-١٠٢٦. أيضًا الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، إخراج مجموعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط ١٩٨١، ج١، ص٤٣٢ وما بعدها.

(٦١) هو أبو محمد سيدي عبد النور محمد بن أحمد العمراني، ولد سنة ٦٨٥هـ، ولم نقف على تاريخ وفاته ضمن كتب التراجم التي ذكرته انظر: **جذوة الاقتباس**، م س، ق٢، ص، ٤٤٨.

(٦٢) انظر: **مقدمة تحقيق علي إبراهيم كردي لرحلة العبدري**، تقديم شاكر الفحام، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ط٢، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص (ب-ج).